

قراءة في رواية "موسم الثلج الحار" للدكتور محمود عيسى بقلم عبد الفتاح القلقلي (ابو نائل). 28.5.13 alayyam newspaper.

اولا اود ان احدد منهجي في عرض الكتب، فانا اعرضها عرضا تحريزيا وليس عرضا تعويزيا، اي اعرض الكتاب لاحتراض من لم يقرأه بعد على قرانته، لا لأعوضه عن قرانته.

هذه الرواية تنتمي الى الادب الواقعي، كما انها تقع على التماس بين الرواية التسجيلية والرواية الخيالية. وعنوانها ذاته يوحي بهذا التماس، فهو "رسالة من طبريا او موسم الثلج الحار". فرسالة طبريا هي رسالة حقيقية يرسلها الفدائيون ليقولوا لطبريا انهم مصممون على تحريرها، وكانت عملية قصفها بالصواريخ اهم عملية تسجلها الرواية. واما موسم الثلج الحار، فهو ثلج جبال عجلون التي اضطر الفدائيون ان يتعايشوا معها بعد طردهم من الاغوار، والمدن الاردنية حسب الاتفاق الذي اقرته لجنة الوساطة العربية بين الاردن ومنظمة التحرير الفلسطينية. وكان ياسر عرفات قد قال عند وصوله موسكو عام 1971 (زمن احداث روايتنا هذه)، مقولة رددتها وسائل الاعلام العربية والدولية، قال ياسر عرفات: "ثلج موسكو هذا العام دافئ"، وطبعا انا لا اعلم ان كان الكاتب يشير الى هذا القول ام ان كل الفلسطينيين شعروا بحرارة الثلج في مقابل برودة الانظمة العربية تجاههم في تلك الفترة.

عندما يقرأ الفلسطيني (وخاصة من عايش تلك الفترة) هذه الرواية يكاد يعلن انه يعرف شخصياتها، سواء من اخذ اسما لشخصية حقيقية (ابو علي ايباد، ابو فتحي ابو الهيجا، شاستري، الفسفوري) او من اعطاه الروائي اسما خياليا (جواد، ليلي، حليلة، ابو غيدا، ابو هويدا، ابو كنعان...)، ولعل الروائي جاء بهذه الخلطة من الاسماء قاصدا خلط الحقيقة بالمتخيّل ليضفي على المتخيّل لمسة من الحقيقة.

كما ان هذه الرواية عرضت تجربة العمل الفدائي عارية من التشويهات التي تعتمدها البعض، ومن رتوش التجميل التي وضعها البعض الآخر من الروائيين الذين تناولوا تلك الفترة. وهنا يجدر بنا التنويه ان الجسم الاساسي من الرواية كُتب في ميدانها حيث كان يعيش الكاتب، وان التعديلات التي أدخلت عليها قبيل الطبع كانت طفيفة، وفي اغلبها لغوية وصياغية.

ماذا اسمي الكاتب؟

هل اسميه الفتى محمود عيسى، كما عرفته لأول مرة في قواعد الفدائيين، حيث لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره؟ أم اسميه الشيخ حسين كما عرفته ناشطاً في التقويض السياسي والعمل الجماهيري في البقاع في لبنان؟ أم اسميه الشاب محمود عيسى كما عرفته في الجامعة وهو يُعدّ رسالة الدكتوراه في الأدب الانجليزي؟ أم اسميه محمود عيسى كما عرفته ناشطاً سياسياً، وثقافياً في ميدان الجاليات الفلسطينية في المنافي والشتات؟

سأتخلى عن كل تلك المسميات، واقول الصديق محمود عيسى الفلسطيني من قرية لوبية إحدى القرى الفلسطينية المدمرة، المهاجر الى لبنان، وبالذات الى مخيم بعلبك، المقيم حالياً في الدنمارك. اما شخصيات روايته جواد، وليلى، وحليمة، وشاستري، والفلسفوري، وابوغيدا فقد كانوا زملاؤعم ورفاقهم بالنسبة له (كما يقول في مقدمته) "اشخاصا معينين، وربما سيكونون آخرين بالنسبة للقراء، بل قد يبدون مختلفين لكل قارئ على حدة، ولكنه رسمهم كما كانوا بالنسبة له في تلك الفترة، وضمن تلك الظروف". ويذكرنا الكاتب انه في تلك الفترة لم يكن قد تجاوز الثامنة عشرة من عمره. كان عنده المعرفة العميقة بتلك الشخصيات، وكان شاهداً على تلك التجربة ومشاركاً بها.

يبدأ روايته بوصف حال الفلسطينيين في لبنان، وقد كانت عائلته منهم، فيقول: "وبعد أن تأكدوا من استحالة العودة إلى بلدهم في المدى المنظور، اصبحوا مكرهين على سكن هذه البركسات حيث كانت مخصصة لخيول الدرك الفرنسي" (ص 9) ليكون مخيم بعلبك. ويواصل في الصفحة التالية: "ورغم ان الهجرة حطمت، إلى حد ما، البنية العائلية والعشائرية المتواجدة سابقاً في فلسطين، فلم يبق ثمة مخاتير ووجهاء لهم ذات النفوذ السابق. ومع ذلك في بقعة اقل من كيلومتر مربع توزع مجموع الآلاف القليلة على عدة أحياء من المخيم الشبيه بالسجن. فكان حي الصفاخرة (نسبة إلى صفورية)، والمجادلة (قرية المجدل)، واللوابنة، والشفاعمية، والكساير والفرارضة، وغيرهم. وغدت هذه التسميات رمزاً للقرى التي أرغموا على الهجرة منها، حيث حافظت هذه القرى على سكنهم بالقرب من بعضهم البعض. حتى علاقات الزواج ما زالت سائدة مع بعض الاستثناءات". وفي الصفحات التالية صورّ مأساة الفلسطينيين في لبنان كما يرويها "جواد" احد شخصيات الرواية، والذي جعله الراوي في الرواية، لعله يرمز للكاتب نفسه: كانت معاناة الفلسطينيين اشبه بمعاناة الاسرى اثناء الحرب العالمية

الثانية، إذ تعرضوا للجوع والبرد والاهانة دون رحمة للنساء والشيوخ والاطفال، مما جعل جواد يصر على الالتحاق بقواعد الفدائيين، ابتداء من "الهامة" معسكر التدريب الاساسي لحركة فتح قرب دمشق. ليقول: "وأخيراً اكتحلت عينا جواد بالكوفيّة المرقطة والكلاشنكوف، وأصبح يرى في الواقع ما كان ممنوعاً من رؤيته على صفحات الجرائد في مخيمات السجون في لبنان، وأحس جواد لأول مرة بأن له قامّة أطول مما كانت له سابقاً. رأسه بدأ يرتفع أكثر وهو ينظر إلى تلك الوجوه السمرة التي يمر بجوارها وصولاً إلى مقر القيادة" (ص 39). ويفصّل مشاكل التدريب بما فيه من ايجابيات وسلبيات، على لسان جواد مرة وعلى لسان غيره حتى يصل الى قيام اولئك المتدربين الالتحاق بالقواعد المنتشرة بالاغوار، ويفصّل حياة المقاتلين في قواعدهم، وعلاقاتهم مع الجماهير من اهلي الاغوار والعاملين هناك في القطاع الزراعي. وكما قلنا في بداية القراءة لم يحاول الكاتب رسم صورة وردية لنفسية وسلوك المقاتلين بل رسمها عادية وواقعية بها ايجابيات الوطنيين الفدائيين، وسلبيات الاشخاص العاديين لان الفدائيين اشخاص عاديون وليسو ملائكة مطهرين، كما نه يفصّل في العمليات العسكرية، ليصور المقاتلين على حقيقتهم منهم الشجاع ومنهم الجبان، ومنهم الشجاع الذي يجبن احيانا، ومنهم الجبان الذي يشجع حينما تكون الشجاعة لا بد منها.

فهذا ابو كنعان الشخصية الطريفة بين فدائيي القاعدة والمختلف عن رفاقه في لبسه وسلوكه، بياقته المكويه وشعره المرتب على «الليبره» واللامع تحت الشمس يهمس بأذن الفسفوري: "روح معاي نبحت عن شي لقطه" الفتيات هنا جيدات.

ضحك الفسفوري واعتذر عن مشاركته ناصحاً إياه بالابتعاد عن هذه القضايا.

- «أوه انتوا دوختوني بالحديث عن العلاقة مع الجماهير، أليس هذا تلاحم عندما نقيم علاقة مع الفتيات؟» (ص 64).

بينما عباس مثلاً، ذلك الفدائي الوسيم ممشوق القوام، والذي ترك زوجته في بيسان ، وتعاهدا ان ينتظر كل منهما الآخر، "فكانت النساء في العمل يحاولن مباحثته، وممازحته «عصفور باليد أحسن من عشرة على الشجرة يا عباس». ولكن يرد عليهن بابتسامة باردة ويمضي في العمل قامعاً نفسه، ونزواته العاطفية التي تتأجج عندما تغني البنات أغاني العشاق المعروفة باللهجة البدوية، حتى صار معروفاً للجميع باسم «عباس الصامت» وآخرون يقولون «الأخرس» " (ص68).

ولكن الشاب "الماع" في ايامه العادية، يكون بطلا حينما يتوجب ذلك، فهذا ابو كنعان الذي كان مشغولاً بلباسه الانيق، وملاحقة الفتيات في ايامه العادية، يكون بطلا في عملية قصف طبريا بالصواريخ، ويصمد في مواجهة رد العدو حتى امام الطيران، ولكن الهلوكبتر تصيبه اصابة شبه قاتلة تقطع رجله تقريبا، "فرك عينيه ونظر إلى قدمه ولكنه ازاح النظر عنها فوراً، لا يريد أن يتذكر الجرح بعد أن نسيه للحظات غفى فيها وحلم أحلاماً جميلة، حلم بسعاد، بشفتيها المكتنزتين المتعطشتين، حلم بها وهو يحتضنها ويضمها إلى صدره بقوة، ويغفو وهو يداعب وجنتيها مسرحاً النظر في عينيها الحالمتين.. لعن الله الطيران، ألم يكفنا ما حل بنا" (ص 124). ويحمل المقاتلون رفيقهم ابو كنعان الى المستشفى حيث تُقَطع قدمه، ويتبادل مع الجرحى الآخرين قصصهم ونواديرهم ، بما فيها من علامات شجاعة، وغرابة تجعلها بالكاد تُصدّق، كالقصة التي حدثت مع مجاهد، ورواها الطوباسي لابي كنعان، والتي جعلت ابا كنعان رغم مأساته وألمه يضحك عالياً، اما الطوباسي والذي قطعت يده في تلك العملية ، فقد شارك ابا كنعان بالضحك، وهو يروي القصة. وتقول القصة: "عندما انفجر الصاروخ الذي كان يستعد لاطلاقه على العدو، حسب شبائنا بان العدو قد استعمل اسلحة جديدة لتدميرنا، كما ظن العدو باننا استعملنا هذا السلاح الجديد ضده، وهكذا صمت الجميع ورددت الوديان المجاورة صدى الانفجار، وبعد خمس دقائق رأى مجاهد - صديقي في الدورية رجلاً يقترب، فمسكه من قدمه قائلاً: - خذ الارض انبطح، سيكتشفوك الآن!! ويالهول المفاجئة ياابو كنعان.

فتح ابو كنعان عينيه واذنيه لسماع المفاجأة.

-«لقد كان جندياً اسرائيلياً، ظنه مجاهد بانه من جماعتنا لانه يلبس بوتا اخضر مثلنا. يبدو اننا كنا متشابهين ومتداخلين بشكل صعب تحديد اين شبابنا واين شبابهم.

- وماذا حصل بعد ذلك؟

-جاييك بالحكي، عندما مسكه مجاهد من قدمه كان الجندي يحمل رشاشاً مثل الشمايزر بمخزنه المدور. يبدو أن الجندي ارتبك بشدة، مع انه يحمل سلاحه في وضعية استعداد كامل لاطلاق النار، الا انه لم يطلق النار بل فك المخزن المدور من البندقية ورماه بوجه مجاهد الذي كان ينظر اليه في تلك اللحظة. لقد اصابه في انفه. عندما ادرك مجاهد الموقف بادره بمخزن كامل وعاد الرصاص يلعلع من جديد...

- ها. ها. ها اطلق ابو كنعان ضحكةً مدويةً اعادته إلى اجوائه القديمة، إلى ضحكته الرنانة «وبعدين شو صار»

- قلب "الاخ" على ظهره

- الاخ ها..»

وضحك الاثنان وتابع الطوباسي - «المهم أن مجاهد بدا يفك قطان البوت للجندي الاسرائيلي، فهمستُ ماذا تعمل يامجاهد؟؟ فاجاب: - اريد أن اتركه حافياً وابدل بوته، بوتني سيء ابن ال..... كسر لي عظمة منخاري" (ص 140).

وفي المستشفى كان ابو كنعان يتحدث بلهجة ملؤها الدفاء والتقدير متناسياً قدمه، حامداً الله على أن يديه ما زالتا سالمتين، «القدم» مسألة بسيطة. عندما ترى مشاكل غيرك تهون مشكلتك" (ص 155).

- رغم ان الكاتب اعطانا تفاصيل هامة عن قواعد الفدائيين، ونمط حياتهم، وعلاقاتهم بالجماهير في الاغوار، الا انه تجنب الخوض بتفاصيل تجربة ايلول في المدن الاردنية، لانه لم يشهداها، واكتفى باشارات مقتضبة، إذ كانت تجربته الفعلية في الاردن في الاغوار، وفي الاحراش، حيث وافقت القيادة الفلسطينية ان تخرج قواتها من الاغوار، والمدن الاردنية وتحديدا من عمان والزرقاء واريد، لتتجمع قواتها في احراش جرش وعجلون. ويفرد الكاتب لهذه الفترة الفصل السادس من الرواية.

لقد كانت هذه الفترة هي الاقسى على المقاتلين الفلسطينيين لانهم وُضعوا في ظروف غير مواتية وصعبة جدا من حيث المناخ القاسي، والامكانات الشحيحة في كل المجالات، وحالات عدم الاستقرار الجماهيري والعداء النسبي، بسبب ماكانت تروجه السلطة الاردنية، إضافة للتصرفات غير اللائقة من قبل بعض المقاتلين الفلسطينيين بسبب الضغط النفسي والجسدي عليهم، او كردة فعل على ممارسات بعض عملاء النظام في القرى القريبة من قواعد الفدائيين في الاحراش.

وعندما تدهورت الاوضاع، صدرت الاوامر إلى قوات الميليشيا بالالتحاق الفوري

بالقواعد العسكرية في الأحراش. لبي قسم منهم النداء، أما القسم الآخر فقد كان يخشى هذه الخطوة ويخاف الابتعاد عن عائلته خوفاً من الانتقام، فكان هؤلاء الضحية الأولى للانتقام عندما دخل الجيش تلك المواقع وسيقوا إلى صحراء الجفر، إلى السجون (ص 207). إثر نجاح اجتياحات الجيش، بدأت روح اليأس تسيطر على القسم الأكبر من القوات المنسحبة، "وكان الجيش يتابع سيطرته على معظم جهات الوادي" (ص 214). وكان الفسفوري ويونس يختبئان معا خلف الصخور، "ومضى الفسفوري يحدث يونس وكأنه الحديث الأخير : «يا أخ يونس، أتذكر في هذه اللحظات تشي غيفارا وهو محاصر، يردد في نفسه «أريد أن أموت الآن وأنا أرتكي إلى جذع شجرة ميتة هادئة..

وضع الفسفوري مخازنه الأربعة المملوءة بالرصاص وانتظر بداية الهجوم الأخير على الوادي عندما ينتهي القصف المدفعي..

كل شيء كان وارداً ما عدا الاستسلام...

«يا عدو الشمس لكن لن أساوم»...

ولأخر نبض في عروقي سأقاوم... سأقاوم..

ردها يونس مرتين وعيناه محدقتان في الممرات التي كان ينتظر تقدم قوات الجيش منها... (ص 225).

حاول ثلاثة من القيادات الاتصال بابي علي اباد في مغارته، ولكنهم فشلوا لانه كان محاصراً، فعادوا، وتقرر " أن تتوزع القوة المتبقية إلى مجموعات يقود كل منها أحد المقاتلين الذين يعرفون المنطقة. من يستطيع أن يصل سوريا بمجموعته فليكن، ومن يستطيع أن يبقى في الأردن حتى وقت لاحق فليكن. أما الجرحى فليس لهم خيار إلا أن يسلموا أنفسهم، وهذا ينطبق على الجزء الذي لا يستطيع المسير مطلقاً" (ص 226).

كان الفسفوري يقود إحدى الدوريات المنسحبة إلى سوريا، ويتابع قصته قائلاً : «مشينا سوية حوالي سبعة عشر مقاتلاً، وفي الطريق اقتربنا كثيراً من مواقع قوات

السلطة، وفي الطريق القريب من "فارة" رأينا أربعة أشخاص فأخذنا الأرض خوفاً من أن يكونوا دورية للسلطة، لأننا لم نكن نرغب في الاشتباك معهم، لكن تبين لاحقاً بأن هذه المجموعة كانت الأخ أبو علي إياد وأبو نوفل . الذي استشهد معه، واثنان من المقاتلين" (ص226).

رغم الحذر الشديد، الا ان الفسفوري وجماعته وقعوا بالاسر، فكيف حدث ذلك؟

"كان الفسفوري قد تعرف أثناء قيامه بمهامه العسكرية بأحد المقاتلين «محمد» وقد شاركه في كثير من الدوريات أولها دورية الكركار، ترك هذا المقاتل العمل في صفوف الثورة، وعاد ليعمل في الزراعة. ويبدو أن السلطة قد نظمتها في صفوفها. أعطاه الفسفوري عشرة دنائير لكي يشتري بها طعاماً للمجموعة، ولكن المجموعة فوجئت بعد مرور حوالي ساعتين بمكبرات الصوت وصوت الآليات المجنزرة :

«سلموا أنفسكم، لن يحدث لكم شيء».

وترددت هذه العبارة وغيرها مرات عدة.

لم يكن هناك إمكانية للمقاومة بعد هذا الجهد الطويل في الفترة الأخيرة، ولم يكن هنالك استعداد نفسي الآن والمجموعة تكاد تخور من الجوع والعطش.

بدأت المجموعة تسلم نفسها الواحد تلو الآخر، وكان خطأ أول مقاتل أنه اعترف بالعدد الكامل للمجموعة" (ص 228).

وسيق الجميع الى الزنازين، في السجون المختلفة. وفي "سجن المحطة" تم الاعدام شنقا للمناضل عدنان، الذي كان قد بقي في عمان، واسندت الثورة له معاقبة الخونة.

عندما اخذوه من زنازنته فجرا لتنفيذ حكم الاعدام، صار كل المعتقلين يصرخون، ويقرعون الابواب بقبضاتهم وبما لديهم من ادوات معدنية، ثم تحوّل القرع الى "تتغيمات لنشيد الثورة الذي صاروا يرددونه معا بصوت عال على انغام قرعاتهم لابواب الزنازين مرددين:

أنا يا أخي آمنت بالشعب المضيّع والمكبّل

وحملت رشاسي، لتحمل بعدنا الأجيال منجل

دين عليك دماؤنا، والدين حق لا يؤجل" (ص 232).

انتهت تلك اللحظات بموت عدنان، وباقتحام الغرف لإسكات الأصوات المدوية،

لكن الغضب كان عارماً: سالت دماء الكثيرين، وانتهت هذه المعركة بتوزيع "المشاغبين"

إلى زنازين فردية في مواقع مختلفة من السجون المنتشرة في البلاد..